

أركيولوجيا اللاوعي الذكوري الجندي في رواية "قلم مريض نفسي" لأسامة قرينة
**The gender male unconscious archeology in the novel
"pen of psychopath" by "Oussama Grina"**

*حدور ربيحة

Haddour rabiha

مخبر اللغة وتحليل الخطاب، جامعة محمد الصديق بن يحيى-جيجل-(الجزائر)

Discourse Analysis Language Laboratory

University of Mohamed Seddik ben Yahya-Jijel - Algeria

ribikamikah@gmail.com

تاريخ النشر: 2020/11/07	تاريخ القبول: 2020/05/13	تاريخ الإرسال: 2020/04/15
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

تحاول هذه الدراسة مقارنة الرواية حفرية بحثا عن المضمر الذكوري والاجتماعي الجندي بين ثنايا الأحداث المسترجعة في خطاب الذاكرة الذي تضمنته الرواية، باعتبار أنّ الراوي يوعي يحاول إخفاء لاوعيه الذكوري (الذي يحيل إلى مجموعة أنساق اجتماعية ونفسية جندرية مترسبة فيه) المدعي الفحولة أمام احتكاكه المباشر بعالم الأنوثة، وعليه ترد هذه الدراسة التحليلية في محاور هي:

- 1/ الوعي بالذكورة بين التشريف والتكليف.
 - 2/ حفرية اللاوعي الذكوري وتحليلات الجندر.
 - 3/ الهيمنة الأنثوية وانكسار الذكورة.
 - 4/ أنوثة الكتابة وسرد الذكورة.
- الكلمات المفتاح : لاوعي، ذكورة، أنوثة، ذاكرة، جندر.

Abstract :

This study attempts to approach the novel sculpturally in search of the masculine and social gender implication among the folds of the retrieved events in the discourse of memory included in the novel, considering that the narrator consciously tries to conceal his male subconscious (which he refers to a group of social and psychological patterns of gender inherent in it) the

* حدور ربيحة، البريد المهني: Haddour.rabiha@univ-jijel.com

claimant of virility in front of his direct contact with the world of femininity.

Accordingly, this analytical study is presented in the following axes:

- 1 / Awareness of masculinity between honor and assignment.
- 2 / Excavations of the male subconscious and manifestations of gender.
- 3 / Feminine dominance and the refraction of masculinity.
- 4 / femininity writing and masculinity narration

Key words: Unconscious, Masculinity, Femininity, Memory, Gender.



تمهيد:

تمكنت الرواية السير ذاتية* "قلم مريض نفسي" ل"أسامة قرينة" من الولوج عميقا في خبايا الذات الذكورية فاضحة -بوعي وبغير وعي- بعض أسرار الرجال أمام سلطة الحب والأنوثة، من خلال اعتماد أسلوب التداخي الحر وخطاب البوح الذي حرر السارد من الكبت النفسي الذي بدأ لديه "حالما طفق يدرك أنّ بعض أعماله ووجدانه تثير الاستهجان لدى الراشدين"¹ أو قد تُستهجن وهي الحالة التي سيكتشفها بعد تجاوزه لمرحلة الطفولة.

يرصد السرد الروائي بعض الأحداث المستذكرة التي جمعت "أسامة" بفتيات كثيرات وطريقة التقاءه بهن ومشاعره المختلفة نحوه في مراحل مختلفة يركز فيها على المرحلة المراهقة. وتمثل هذه الرواية استنفاغا نفسيا لمكبوتات لم يستطع إخبار أحد بها لحساسية الموضوع الذي يمس صورة الرجل فيقرر تدوينها هربا من ثقل هذه الذكريات المكبوتة. يقول السارد عنها: «اليوم أريد أن أكتبك، أن أريقك حبرا كي يهدأ نواح الماضي»² ومن هنا، يصبح خطاب اليوميات وسيلة بوح بالمكونات النفسية يعتمد في ذكرها على أسلوب تيار الوعي الذي "يمثل ذلك الانسياب المتواصل للأفكار والمشاعر داخل الذهن"³. هذا التيار الذي لا يأخذ على عاتقه وضع الأفكار في ترابط أو تناسق ولا يأخذ بمبدأ المباشرة في عرض القضايا والمضامين، إنّه يتميز باللاترابط وعدم الاستمرار والتزامه بالإيجاءات الخاصة⁴.

قد يبدو للقراءة الأولى السارد "أسامة" متصالحا مع الآخر (الأنثى) ومحبا قويا وعاطفيا لكنّ النص و"مهما بلغ من الشفافية، نكون ملزمين في الغالب الأعم باختراق عمقه وضبايته لنصل أخيرا إلى حيث يقبع ما هو عميق وجوهري فيه"⁵ وفق التحليل الأركيولوجي، فالخفر عميقا بين طيات السرد سيكشف نزعة ذكورية لم يستطع أسامة التخلص منها بعدما حاول في كثير من

المواضع السردية تبرير تصرفاته الذكورية تجاه الفتيات اللواتي عرفهن، ويُسهّل كشفُ النزوع الذكوري الجندري أكثر اعتماداً السارد خطاب المذكرات أكثر من الطرق السردية الأخرى.

1/ الوعي بالذكورة بين التشرّيف والتكليف:

يكثر الجدال اليوم حول مفهوم الذكورة والأنوثة باختلاف الميادين التي ضمّت المصطلحين في دراساتها، فإذا كانتا بالنسبة للعلوم البيولوجية حتمية طبيعية شكلتها التأثيرات الهرمونية، فإنّها لبعض باحثي علم النفس والاجتماع غير ذلك، ولا تتصل كلياً بالطبيعة الفيزيولوجية بقدر ما تتصل بالعوامل النفسية والاجتماعية، "فالجنس بيولوجي يحدد الأفراد بناءً على تشرّيجهم التناسلي في الذكور والإناث، بينما يشير الجندر إلى الرجولة (الذكورة) والأنثوية (الأنوثة)"⁶ وهي قيم وسلوكيات يحددها المجتمع.

والحقيقة أنّ "ما نعتبره رجولياً قد يستمد كينونته من الطريقة التي تتصور لنا بها الذكورة في القصص والصور ووسائل الإعلام بقدر ما يستمدّها من معيار مسبق للذكورة موجود هناك في الواقع ننقله بدورنا في الأدب والفنون".⁷ وعليه يحاول الروائي أن يعرض هو الآخر مفهومه للذكورة ونظّرته إلى نفسه كرجل بتحديد معاييرها الذاتية الخاصة المكبوتة دون أن يحاول تحميل صورته الرجولية. إنّه يعطي لنفسه صوتاً سردياً يعبر عن حقيقة الرجل، وعليه تصبح الذكورة مغايرة للمفهوم السوسيولوجي لها، فليست من الرجولة بالنسبة له الصمت عن المشاعر المؤلمة وليست منها صفة عدم البكاء والحساسية ورهافة الأحاسيس وليست منها ضرورة عدم اظهارها أو الكتابة عنها.

يقول السارد: "غادرت حينها رحم أمي ليكتب اسمي ويطلع في الدفتر العائلي حاملاً شرف الابن الأول، شرفاً لم أكن أهلاً له"⁸. يزدوج هذا الشرف الممنوح له بين كونه ذكراً من جهة وفي كونه الابن الأول من جهة ثانية وهذه العبارة تعتبر إشارة ضمنية غير واعية إلى سياق اجتماعي ذكوري يتم فيه التمييز بين الذكر والأنثى بشكل جندري، ويُفضّل فيه أن تكون الولادة الأولى للذكر لاعتبارات اجتماعية تتعلق بحمل اسم العائلة وضمان استمرارية نسلها، مرتبطة في أصولها العميقة بالحفاظ على السلطة الذكورية البطريكية، لذلك يحيط المجتمع الذكر بعناية خاصة واهتمام بالغ، ويتأكد ذلك بشكل بارز في قوله: "كنت أكبر وسط حب كبير وحنان كان كثيراً علي لم أستطع عدّ تلك الايادي التي كانت تحملي".⁹

بيد أن هذا التشريف والتفضيل الذي حضني به لا يمنعه من طرح سؤال مهم له طابع فلسفي جنديري: "كيف ارتأيتم أنني رجل بتلك المواصفات؟"¹⁰ فهذا الطرح يسأله بالدرجة الأولى المجتمع الذي يبني صورة نمطية للذكر الذي بمجرد ميلاده، فيتكون لأفراد الأسرة أفق توقع معين له مبني على مجموعة من الخلفيات الذهنية الاجتماعية، ومن خلاله يتساءل عن الكيفية التي جعلت المجتمع وعائلته تنتظر منه الأتسام بصفات الرجل وهي الشدة والقوة والصلابة وعقد العزم على تحقيق أمل العائلة ومبتغاها وفق مفهوم الجندر الذي يعتبر " نظاما system من الممارسات المتشابكة ويوجد بشكل مستقل عن الأفراد، فمفهوم الجندر ليس خصائصا لأفراد Characteristic of individuals وإنما مجموعة من الصفات والسلوكيات تظهر في جميع مستويات البناء الاجتماعي ويتمثلها الأفراد منذ الولادة"¹¹ وهو المسار الاجتماعي المرسوم له باعتباره صورة تالية للأب في الأسرة وحاملا لمسؤولية تقارب مسؤوليته، ومن ذلك ترسيخ فكرة أفضلية الرجل على المرأة بدءا من ولادتهما الأولى.

أمام هذا التوقع المبني عليه يفهم الرجل/السارد تلقائيا - كما تبني له التصورات الاجتماعية - أنه موجه للقيادة والسلطة يقول: "هل أرادوا مني أن أكون سيد قومي؟"¹² ففي وعي السارد الأمر متعلق بمجرد التساؤل عن سر تسميته بأسامة، غير أن السؤال يعبر عن ترسب قيمي رسخه المجتمع الذكوري وهو تهيئة الرجل اجتماعيا وليس فطريا للقيادة وفرض السلطة، وهذا ما يكشفه ضياعه النفسي باعتبار أنه لم يكن يفكر في ذلك وهو ما سيجعله يقع بين دوره الاجتماعي كرجل من جهة ورغبته في التحرر من هذه المسؤولية من جهة ثانية.

بلفت السارد نظرنا إلى أن أول عقبة تصادف الذكر هو السلطة الأبوية والعائلية والقيم المجتمع وليست هذه المعاناة حكرا على الأنثى وحدها، يقول: "رجل العائلة هذه لعنة أول مولود ذكر في مجتمعي، كل الآمال تعلق عليه، كل الأثقال تورث له"¹³ فالرجل وتحديدًا لما يكون المولود الأول لا يحصل على نفس امتيازات الحرية التي يتمتع بها إخوته بعده، فيوكل إليه تلقائيا دور اجتماعي يزواج فيه بين دوره كرجل عموما ودوره كأب ثاب ومسؤول عن العائلة، وهذه المسؤولية التي تفرض عليه تتسبب بثقل نفسي فيشعر السارد بالرغبة في التحرر من هذا القيد الاجتماعي. ولأن " في أعماق ذاته يتوق الإنسان إلى الالتحاق من جديد بالوضع الذي كان عليه قبل الوعي"¹⁴

يتوق السارد هو الآخر إلى العودة إلى ست سنواته الأولى التي لا يشعر فيها سوى بمتعة اللعب بعيدا عن مسؤولية الرجال.

2/ حفريات الذكورة وتجليات الجندر:

إنّ الذكورة قد تطفو على سطح السرد من خلال التصرفات الواضحة الواعية للشخصية، لكنّ ذلك ليس غاية بحثنا، لأنّ مثل هذه التصرفات مطروحة على قارعة السرد عمدا من السارد وما يهم هو السعي وراء الكشف عن هذه الذكورة وتناقضاتها التي قد لا ينتبه السارد إلى أنّه قد أدرجها لأتمّ نتاج كتابة لا واعية.

وعليه فأول ما استوقفنا كان مقطعا سرديا يعتبر خطابا يحمل نزعة ذكورية مضمرة ويعبر الشفرة اللغوية التي تتوالى بموجبها بقية الأحداث وترتبط بصورة لا واعية بفحواه، يقول الراوي أسامة واصفا كرة القدم مقرنا إياها بصورة المرأة: " المعشوقة الوحيدة التي يشاركها العاشق غيره، كيف لا وهي لا تكون في كامل أنافتها ما لم يداعبها الكثيرون؟ (...) تلك الجميلة التي يريدونها الجميع بين قدميه ليتفنن في مداعبتها"¹⁵ يحمل هذا المقطع انزياحا وابدالا متعمدّين لبعض الملفوظات اللاواعية، يتعمد تورية الباطن واجلاء الظاهر، فالعموم الظاهر هو وصفٌ للكرة مقرونا بجمال المرأة - وان كانت علاقة المشاهدة منعدمة منطقيًا- والخفي هو طبيعة الرؤية التي يحملها السارد في لاوعيه باعتبار هذا الأخير مجموعة "المحتويات المكتوبة والمواد النفسية التي لم تبلغ القيمة والشدة التان تسمحان لها بعبور عتبة الوعي"¹⁶، فالحفر في هذا المقطع يكشف لنا نظرة السارد تجاه المرأة ونستشفها في هذه النقاط:

- ✓ المرأة ملكية خاصة لا تتاح لغير المالك وستأكد هذه الفكرة فيما سيلبي من التحليل (المعشوقة الوحيدة التي يشاركها العاشق غيره).
- ✓ المرأة كما الكرة أو الكرة كما المرأة تأخذان قيمتهما في وجود الرجل وفي اهتمام الكثيرين بها وفي الأغلب تمكن السارد أن يلامس عمق المرأة في شعورها الدائم بالحاجة إلى الاعتراف الذكوري بما الناتج عن التمييز الجندري ضدها.
- ✓ مرتبة المرأة تتحدد بمقدار المتعة التي توفرها (تلك الجميلة التي يريدونها الجميع بين قدميه ليتفنن في مداعبتها) ولو ذهبنا أبعد من هذا في الحفر فسنتأكد أن هذه الجملة ذات

إيحاء جنسي فلفظتي (بين / المداعبة) تحملان رؤية لاواعية جنسية للمرأة لا يسمح الوعي لها بالظهور.

يحمل الذكر رغبة غير مبررة في الامتلاك ويفضح هذا الشعور قول السارد: "كنت أعلم يقينا أنّها علاقات لا طائل منها يا قلمي، لكنني رغبت بها، طبيعتنا!"¹⁷ فرغم إشارته السابقة إلى تدني القيم الأخلاقية وولوج الشباب في علاقات غير شرعية تحت مسمى الحب يجد نفسه مناقضا لما ذكره وراغبا هو الآخر في الارتباط، فقد اعتبرها طبيعة فيهم. بيد أنّ هذا الموقف الذكوري الذي فضح التناقض بين القيم والرغبات يكشف عن وجود المنافسة الذاتية بين الذكور للضفر بالمرأة ليصبح عدم الحصول عليها نقيصة من الذكورة أمام الذكور الآخرين، فبعدها كان من الذكورة عدم الاهتمام بالمرأة وتهميشها تغيرت الرؤية، وهذا ما يسمح بالإشارة إلى هذه الطبيعة المتغيرة الاجتماعية للذكورة والرجولة التي ترتبط بقيم المجتمع. يؤكد هذا الرأي قول الراوي: "بدأت أفقد صبري وأنا أبحث عن مريضة نفسية، مثلي فالحب لا يجمع إلا من تشابحت طبيعتهم"¹⁸ والحقيقة أنّ مثل هذا القول يكشف العلاقة الجدلية القائمة بين الذكر والأنثى وي طرح سؤالاً مفاده: من يحتاج من؟ هل الأنثى من تحتاج الذكر أم العكس؟ ليبين حاجة الذكر أيضا إلى الأنثى بشكل فطري. وفي نفس المقطع نجد السارد أشدّ تبريرا لموقفه في انسياقه وراء تيار الحب معللا ذلك بالرغبة في الحصول على الشخص الآخر الذي يفهمه، وعليه يضعنا السارد أمام ثنائية (الضمير/ القيم) وهي التي تبرز من سياق المعاناة النفسية التي يتخبط فيها أسامة لعدم استطاعته الموازنة نفسيا بين شهواته ووازعه الديني الأخلاقي.

تتجلى الذكورة السلبية في تصرفات وسمت بالتهور والتسرع، مشبعة بالاندفاع نحو الأنثى يغيب عنها وعي بالأسباب والأهداف من هذه العلاقة، فما كان يشعر به السارد هو الفراغ والملل ورغبة في محاكاة غيره دفعت به إلى الرغبة في الارتباط هذا ما يسمى بآلية التعويض النفسي، و"يحدث التعويض عندما يستبدل الفرد أسلوب التعبير عن أحد الدوافع بأسلوب آخر غير مباشر"¹⁹ فكان الارتباط بديلا نفسيا لسدّ شعوره بالدونية واحتقار الذات الذي كان سببه الأول هو كفته لمجموعة من الرغبات التي لم يستطع المطالبة بها، ولا جعلها تطفو إلى سطح الوعي (رفض الدراسة، رفض دوره كرجل للعائلة، افتقاره النفسي لعدم شعوره بالاهتمام الأنثوي به).

يعلل السارد لإنقراض كبرياء صورته الذكورية بالطبيعة المائلة بالفطرة إلى الجنس المغاير الأنثوي، غير أنّ الجلي هو أن الهدف هو الارتباط بجد ذاته كقيمة وليس الطرف الآخر كشريك للحياة، وعبارة من مثل " أكاد أحمّد نار رغبتني في الارتباط" تؤكد ذلك. هذه الرغبة في الارتباط حملت بعداً تأثيرياً من المجتمع في إشباع الشعور الذكوري بالذات، لذلك سيلاحظ القارئ أنّ قصته تبدأ باختيار أسامة الفتاة الهدف²⁰ وتنتهي بالتخلي عنها بعد إشباع رغبة الامتلاك معللاً ذلك بعدم تمكنه من محبتها²¹.

وبذلك تكون الرواية قد طرحت نسفاً حاول السارد اضماره هو الضعف الذكوري وحاجة الرجل هو الآخر للاعتراف الأنثوي، فيكفي أنّ السارد يستعيد موقف صراع فتاتين لأجله ويدونه فيحدث قلمه عن محاولة كل منهما الضفر به، ومقابلته هو - كما ذكر - لذلك الحدث بالإهمال وعدم الاهتمام رغم رغبته الشديدة في الارتباط. إنّ هذا الزعم بعدم الاهتمام ما هو سوى اهتمام في حد ذاته، فالذاكرة لا تحتفظ إلا بالحدث الذي يؤثر على نفسية الفرد إيجاباً أو سلباً، وكثير من التصورات التراكمية في النفس ترجع إلى أمور، أفكار غير واعية²² مترسخة في الذاكرة لكنّ السؤال لماذا يأتي على ذكر موقف كهذا؟

إنّ السارد يعاني من عدم الثقة في نفسه ووسامته فيدوره يحتاج إلى الاعتراف به من طرف الأنتى ويتجلى احتقاره لذاته في قوله: "أذكر أنّ زميلة لي قد حدثتني يوماً أنّها مهتمة بي، كيف لرجل مثلي أن يكون محطاً للأنظار"²³ فهو لا يستطيع أن يصدق اعتراف الأنتى بوجوده واهتمامها به كرجل، وهي فكرة معكوسة لما يتداول في المجتمع في حاجة المرأة إلى الرجل ليعترف بوجودها.

يعتبر الوصول إلى الغاية شيئاً كفيلاً بإشعار المرء باللذة والانتصار فيسعى بعد ذلك إلى هدف آخر، والتظاهر بعدم المعرفة أقوى المهدئات النفسية، لذلك يتخذ تبريراً في عدم معرفته الآنية بأنّ علاقته بحبيبته الأولى قد تسببت في أذيتها بعدما اكتشف عدم استطاعته أن يجلبها، فيقول: "كنت قد قطفتها ولم أكن موقناً، أمّا هي فكانت تروي عطشي"²⁴ وهذا لإخفاء شعوره بالذنب تجاهها في الظاهر لكنّه في المضمّر تحديد مسبق لطبيعة العلاقة التي جمعتها بها، إنّها علاقة اشباع وامتاع كشفتها كتابة واعية (تروي عطشي) وفي هذا نجد "خطاب اللاوعي يتكلم من خلال الوعي"²⁵

تتحلى الذكورية بصورة سلبية أخرى حين يتضح أنّ الشعور بتأنيب الضمير ليس صادقا لأنّ ما أقدم عليه كخطوة ثانية بعد ترك الحبيبة الأولى هو الدخول في علاقة ثانية لجعل تلك الحبيبة تكرهه، فيضع حسب تصوره بذلك حدًا لمعاناتها، وفي هذا يمكننا أن نؤكد رأينا السابق في الاسقاط المادي الذي قام به السارد لصورة المرأة على كرة القدم، فمجموعة الأفعال التي قام بها تبرز نظرتة التشيئية للمرأة ومعاملتها لها على أساس كونها ملكية.

ويتأكد طرحنا أكثر بتناقضه الذكوري بين قبوله لنفسه التلاعب بمشاعر أنثى وعدم قبوله في الآن نفسه أن يتم التلاعب به، فيصف الفتاة التي خانته مباشرة بعد دخوله في علاقة معها بالوقاحة في قوله: "وفي المقابل أي وقاحة تلك، امتلكتها لتفعل بي هذا؟ وأي صفقة تلك تلقيتها منها؟"²⁶ وهي صدمة مست فحولته وأساءت إلى رجولته، رغم أنّ علاقته بها "محض مصلحة"، وهذا الزعم بالفحولة هو الذي يخول لنفسه أن يرى موقفه الأول من الشهامة والصدق فقد تركها ولم يستمر في خداعها (بعد سنتين) بينما الموقف الثاني يعتبر وقاحة وسوء أدب.

يشعر السارد بالعدمية والاعتراب النفسي عن المجتمع رغم أنّه محبوب من عائلته ومن الجنس الآخر وذلك لأنّ المطلوب من هذا الذكر هو أن يصبح رجلا بمعايير المجتمع التي لا يريدتها، فالتنشئة الاجتماعية له لا تجعله راضيا باعتبار أنّه يخضع إلى سلطة الوالدين بالدرجة الأولى للذات "يحلما أن يصبح ذاك الصغير رجلا ذا صيت وله من الشأن والعزة ما يكفيه ليعيش حياة سعيدة"²⁷. يعتبر هذا الاعتراب النفسي وليد عدم فهم "أسامة" لهدفه في الحياة وكتبته لرغباته المتعددة وطمسها بدءا برغبته الحصول على علاقة مستمرة ترضي شعوره بالحب لدى الطرف الآخر ولمقارناته المستمرة بغيره وعدم حصوله على نفس التقدير الاجتماعي يقول: "كان الجميع يلاحظ "محمد" فقط أمّا أنا فكنت كظله الكل يراي لكن لا أهمية لي"²⁸ والحقيقة أنّ غيره "أسامة" من "محمد" ليست عائدة بالدرجة الأولى الى التقدير الاجتماعي الذي ناله بل إلى عجزه أمام قوة تصرفه وكسره للقيود الاجتماعية فذكر عنه: "كان محمد قد توقف عن الدراسة فعل ما كنت دوما أريد فعله"²⁹ وفي هذا القول إشارة إلى اهتمام المجتمع بمن يمتلك الأموال لا بمن يمتلك العلم، ف"محمد" مثّل الأول ومثّل "أسامة" الثاني.

إنّ الجلي من هذا أن وراء هذا التستر وراء خطاب الذاكرة يهدف إلى إنقراض السارد من تيهه النفسي ويكشف عن رغبته في التغيير الاجتماعي، لكنّ هذه الرغبة تبقى حبيسة الورق فقد وفرت

الكتابة بيئة منعزلة عن الآخرين، ولما نطرح فكرة خطاب البوح فإننا نطرح موازيا لها فكرة الألم الناجم عن الوعي بالواقع وصورته المظلمة وهو أرق يصيب كل كاتب له توجه التزامي بقضايا الدين والمجتمع.

نكتشف ظهور النزعة الذكورية الجندرية في عدة مواضع سردية، منها:

أولاً: موقفين متناقضين ذكرهما السارد في موضعين متباعدين سرديا:

1/ موقفه الراض لعلاقات حبيبته مع أصدقاء ذكور في حديثه عن غيرته عليها، يقول: "تدعو أولئك الحمقى إخوانها أما أنا فاتخذتهم أعداء تجاوزوا حدود مملكتي"³⁰

2/ موقفه من علاقاته هو بصديقات إناث "أحدى زميلاتي في السابق اسمها سمية فتاة طيبة أعتبرها كأخت لي"³¹

هذان الموقفان يعكسان نسقا اجتماعيا مضمرًا وهو أنَّ المجتمع الجزائري يعيش انخيارًا في ترسيخ القيم الدينية لدى فئة الشباب المراهقين وفي نفس الآن لا يزال يعيش تناقضا صارخا بين ذكورته وقيم دينه، فيسمح بمقتضى الفهم الخاطئ للدين للذكر بما لا يسمح به للأنثى، فالرجل متعدد العلاقات النسائية لا يُعابُ لأنه رجل، بينما تعاب المرأة لنفس السبب في حين أنَّ الإسلام يحرم هذا النوع من العلاقات عليهما معا.

ومن هنا، يمارس "أسامة" الحرية الاجتماعية الممنوحة لجندره فيجادل حبيبته في محادثتها لذكور غيره بينما يسمح لنفسه بذلك. يكشف هذا التصرف عن خوف ذاتي من الاستبدال، فأحساسه الدائم بالدونية أمام الغير وعدم قدرته على الوثوق بجبها يجعله يمارس هذه السلطة الذكورية غير المشروعة.

ثانياً: إدراج خطاب ديني له سياق عام يخص النساء بينهن أو الرجال بينهم ولا صلة له بالعلاقة غير الشرعية (الحب) دون زواج هو "تهادوا تحابوا" واستغلاله كحيلة لإضفاء الشرعية على هذه العلاقة العابرة، ويكشف ذلك عن حدّة الصراع النفسي الذي يعانیه أسامة لمعرفته كمسلم بكونها علاقة محرمة مما يجعله يبحث عن مبررات دينية لتصرفاته، فأعطائه هدية لها -رغم بعده الإنساني الرقيق- مرفوض شرعا لأنه غريب عنها وهي أجنبية عنه، ويعتبر هذا التوظيف لهذا الحديث كشفا لاستراتيجية ذكورية لاواعية في بعض الأحيان تختار من الدين ما يناسبها لتحريم أو إحلال أي جزئية في علاقة الرجل بالمرأة.

ثالثا: الإبقاء على الصورة النمطية للمرأة ومن ذلك أنّ "الأنثى كائن صعب ارضاءه"³² وهي صورة نمطية اجتماعية مسبقة تحكم على المرأة تم ترسيخها وتبليطها في عقول الرجال.

2/ الهيمنة الانثوية وانكسار الذكورة:

تشكل معايير الأنوثة والذكورة بمقاييس "يحددها المجتمع والثقافة لكل من النساء والرجال على أساس قيم وضوابط وتصورات المجتمع لكل من الرجل والمرأة"³³ لكنّ الأنوثة تتشكل أيضا في جانب منها من تصورات الرجل لها أيضا، باعتبار أنّ جوهر المجتمع ذكوري في أغلبيته، لذلك فأى شيء قد تقوم به المرأة يخضع لهذين الجانبين، وقد يكون التصور الذكوري للأنوثة مجرد تسميط اجتماعي لا غير وغالبا ما يكون هذا التصور مرتبطا بالجسد. يقول السارد في وصفه لقائه الأول بالخبيرة: "كنت أنظر مباشرة إلى فتاة ليست كأى فتاة أول أنثى توقف الزمن! أول أنثى تربيكي وتصيب جسدي بالشلل"³⁴ ورغم أنّ الراوي سيضيف عبارة تؤكد أنّ انجذابه إليها هو نداء روح لروح لكنّ ذلك غير مأخوذ به لأنّ أول ما رآه منها كان ملامح جسدها ووجهها، بمعنى أنّه رأى منها الجمال الخارجي الذي جعله يبدل لغويا مفردة (فتاة) بلفظة (أنثى) وهو ما يمكن أن نسميه ترقية ذكورية من مستوى الفتاة العادية على مستوى الأنوثة وعلى هذا النحو تعود الأنوثة لترتبط بالجسدنة والتشيعى والتمثل المادي لها.

وتتكسر النظرة الى الانثى باعتبارها ملكية في الخطاب اليومي والحوارات الاجتماعية فنذكر على لسان أخت السارد قولها: "لا تحزن أخي ستحصل على أفضل منها" ومن هنا نفهم أنّ تكريس النظرة الى المرأة على هذا النحو تساهم فيه سلطة الخطاب اليومية ولغته والأهم من ذلك تكريس وجوده المرأة في حد ذاتها بصورة لا واعية، مما لا يجعلنا نستغرب من ربط الرجل للأنوثة بالجسد وجماله ثم بفكرة الحصول عليه إن كانت المرأة تسمح بإنتاج هذه الفكرة.

يصبح بذلك التعامل مع الحب بوصفه الرابط والعلاقة بين الذكر والانثى تعاملًا مع التملك اللاواعي في الذهنية الذكورية وهو ما توضحه مجموعة من الخطابات اللغوية وتوظيف مفردات كثيرة كقوله: "قلت أشياء كثيرة يا قلمي وأصررت عليها كثيرا كي أبقبها بجانبى لعلها تقع أسيرة حبي"³⁵ "أردت أن أقاتل كي أفوز بها"³⁶ والرواية تزخر بكثير من المفردات الدالة على التملك. فقد كان يقينه التام أنّ ارتباطها بأنثى هو حصول على شيء خاص به يقول: "سيريد الجميع التقرب منها لكنها كانت مملكتي"³⁷. يذكر: "عندما يصعب عليك الحصول على شيء ما يا

قلمي فإنّ شغفك به ينمو مع كل محاولة ستتعلق به كثيرا ستقع في كذبة عشقه وتصدق فكرة عدم استطاعتك العيش من دونه³⁸. في كل هذا تتجلى الرؤية الذكورية للأنتى وفيما سنعرض له تاليا ستتجلى لنا الهيمنة الأنثوية على السارد بشكل لاواع منه.

كان "أسامة" يعاني من هاجس هو الخوف من أن تتركه حبيبته وهو ما يظهر في موقف حلم اليقظة في حصة الإنكليزية الذي خيل فيه له إعلانها له بقرارها انهاء العلاقة والذي سبب له مجموعة من الاضطرابات كضيق التنفس والقلق والخوف. يفضح هذا الموقف المعاش ضعفه كذكر من جهة وهيمنة الأنثى/الحبيبة من جهة أخرى وعقدة نفسية هي أقرب إلى المازوشية، يقول أسامة: "أحببت نفسي في حضرتها ورغم احتراق داخلي من تصرفاتها من عنادها من كل اللامبالاة التي أغرقتني بها. كانت سيئة جدا لي"³⁹، "صبرت على أذيتها"⁴⁰، "من كرت وقتي لها وجعلتها قبلة لأوتار قلبي جعلتني تحت قدميها، دنست طهارة روعي"⁴¹ نختار هذه المقاطع بعناية لأنّها لا يشي وحسب بالطبيعة الانهزامية للذكورة أمام سلطة الأنوثة وحسب، بل يضمّر شعورا لاوعيا للسارد باستمتاعه بكل هذا التعذيب النفسي الذي لقيه منها ومردّد استنتاجنا هذا عائد إلى عدم قدرته (عدم رغبته بصفة لا واعية) التخلي عن هذه العلاقة التي يتبنى فيها موقف الخنوع والاستسلام. ومن خلال توظيف أداة التحليل النفسي لمقاربة المقطع حفريا وتفكيكا نقر بأنّ ما يعيشه السارد مع حبيبته هو فعلا لذة المازوشية فرغم العذاب الذي يلاقيه السارد من أسي نراه يجب نفسه في حضرتها.

تبدو للوهلة الأولى أنّ قيم الرجولة والكبرياء تتحكم في تصرفات أسامة فيعتقد القارئ أنّه رغم ولعه بها لا يظهر ضعفه أمامها ويحاول أن يكون رجلا رزينا متحكما بأعصابه وعواطفه وفق ما يتطلبه التصور الاجتماعي للذكورة، من خلال مجموعة من التصرفات كعدم طلب البقاء منها كلما همت بالمغادرة، عدم اعتراضه على احضار صديقته في موعد غرامي خاص بهما رغم رغبته الشديدة في الانفراد بها⁴² بيد أنّ ذلك يمكن أن يؤول بشيئين: إمّا أنّ السارد خاضع لاستعباد أنثوي طاغ على شخصيته أو أنّه خاضع لوهم الذكورة الاجتماعية في اعتقاده أنّ كبت الرغبات الشخصية هو ما يضاف إيجابا للرجولة.

3/ أنوثة الكتابة وسرد الذكورة:

قد يبدو اختيار العنوان غريبا ونحن نتحدث عن رواية مكتوبة من طرف روائي رجل ومسروود خطابها من طرف سارد شاب، لكننا اخترناه عمدا لإظهار مفارقة غريبة بين أسلوب الكتابة الأثوي الذي يفيض مشاعرا وبين السرد الذكوري المضمحل لخطاب ذكوري جندي.

يكلم السارد "أسامة" قلمه مهيمنا على السرد بشكل لا يفتح الأفاق للشخصيات الأثوية للتعبير عن ذواتها بنفسها، مما يجعلنا نذهب إلى التأكيد أن أول شفرة سمحت بالحفر عن النزعة الذكورية للخطاب تبدأ من الإشارة إلى هذا الصوت الذكوري المهيم عليهم، فالشخصيات الأثوية كحبيبته الأولى وميلينا والحبيبة الخائنة ومريم لا يتحدثن إلا بمنظوره ولا يسرد عليهن سوى علاقاتهن به، فالسرد الاستذكاري هنا ليس وسيلة استرجاع لبعض الوقائع التي عاشها معهن بل هي عملية تقويض لمساحة التعبير والسرد الأثوي، كما أنه لا يملك أسماء ولا ملامح ولا أبعاد كثيرة وفي هذا إقصاء للوجود السردى له.

إن استدعاء الشخصية "ميلينا" وهي شخصية متخيلة عكس بقية الشخصيات التي عرفهن الروائي فعلا لتمثل دور الحبيبة التي جرحها هو الآخر ما هو إلا استدعاء لآواع لصورة الأثوي التي جرحته، فهذا الاستدعاء هو رغبة لا واعية في الانتقام من التي جرحته في أول تجربة له لكن ذلك غير ممكن لذلك تتحول هذه الرغبة بشكل غير مقصود إلى "ميلينا" خصوصا وأنه يقر بأن عليها هي الأخرى أن تعيش ما عاشه هو من ألم وخبرة وعليها هي الأخرى أن تنضح كما نضح هو⁴³ فتتحقق للكاتب ذلك الانتقام سرديا.

يعتمد السارد في عرض أفكاره على أسلوب طغت عليه المشاعر الأثوية والأحاسيس الفياضة والاحتلاجات النفسية ليكاد يشعر القارئ أن ما يقرأه لأثوي لا رجل، ورغم أنه لا يصح كثيرا تصنيف الأسلوب بين الأثوية والذكورية لكننا ندعم رأينا بهذه المقاطع، يقول السارد "أسامة": "فيحدث أن أكلم فلانا ويعقب حروفي أشكال لا بتسامة عريضة والحال وراء شاشتي أن الدموع تنهمر وتأبى التوقف"⁴⁴، ففي المجتمع "ينتظم التقسيم الأساسي للسماوات المزاجية على محور العدوانية مذكر والسلبية مؤنث وبناء عليها تنتظم باقي الصفات والسماوات بطريقة ما وأحيانا بمنتهى البراعة"⁴⁵ ففرض التصور الاجتماعي للرجل إلزاما عليه أن لا يبكي ويتصف بالعدوانية بيد أن الروائي يكسر هذه الفكرة ليجعل سارده يتخلص من المفروض الاجتماعي عليه، فلا عيب أن يبكي الرجال بالنسبة له، وللتأكيد على ذلك نضيف هذا المقطع السردى في حديثه عن صديق

له: "وقد تكون لأني أعزّه كثيرا وأحب ردة فعله اتجاه ذري للدموع وكيف أمّا لا تهون عليه ولأني أحب تودده إلي كي لا أبكي"⁴⁶. لا يمكن لأي قارئ مهما زعم إلا أن يلامس دون شك هذه الأثوية في أسلوب السرد بضمه مجموعة مفردات دالة عليها.

غالبا ما تظهر بنية الحكبة في الرواية الذكورية نوعا من إدراك الواقع فتظهر في البنى التقليدية أنّ مصير الأنثى هو القبول السلبي باختياراتها المحدودة والصبر على المكاره والعقاب على التجاوزات⁴⁷ ولا تتعد هذه الرواية عن ذلك فهي تقصي أي تفاعل إيجابي للمرأة بدءا للحبيبة الأولى التي لم يتبد سوى الاستسلام لمصيرها وألمها حتى أنّ السارد لم يفسح لها المجال سرديا للتعبير عن تأثير إخماء العلاقة عليها، كما كان تصوير السرد للشخصيات الأثوية ذكوريا فتم تصوير الحبيبة الثانية على أنّها خائفة، وكذلك ميلينا بوصفها المحبة له الكاذبة والتي خدعته بانتحال شخصية أخرى والحبيبة الرابعة بوصفها معذبة والقاسية.

إنّ محاولة فهم هذه المفارقة بين أسلوب الكتابة الأثوي والسرد الذكوري (باعتبار السارد ذكرا وباعتبار القضايا المطروحة متعلقة به) تعتبر فعلا عسيرا فلو أنّ السارد كان على لسان أنثى لزعمنا براعة السارد في تمصص دورها، ولكنّه كان ذكرا لا يحمل سمات التخنث ويتصف بقيم الرجولة بصورة عادية، نرجح ذلك -ويبقى تفسيرها قابلا للتخطيء- إلى رغبة الروائي في إعادة تكوين صورة أخرى للرجل تتعد عن التصور الاجتماعي المرسوم له وتعرض صورته في حقيقته بعيدا عما يجب أن يكون عليه في المجتمع.

نتائج الدراسة:

✓ كسرت هذه الرواية المفهوم الجندي للذكورة بالدرجة الأولى وأعادت بناء تصور لها قائم على ضرورة التعبير عن الأحاسيس المرهفة والانكسارات الذاتية، كاشفة حاجة الرجل هو الآخر إلى الاهتمام والحب ورغباته هو الآخر في البكاء علنا. فعرضت الرواية منظورا روائيا معكوسا لقيم الذكورة لكنّها في نفس الآن ألحقتها بالأنثى فوسمت هي بالقسوة والصلابة والهيمنة والتحكم في العلاقة مما يخلق ثنائية مقلوبة هي هيمنة الأنثوية/انكسار الذكورة.

✓ أثبتت هذه الدراسة أنّ الرجل ومهما حاول لا يمكنه التملص من ذكورته في كتاباته ولا التخلص من تميزه الجندي لأنّه متشكل في لاوعيه بصورة آلية منتظمة يرسخه المجتمع

والأسرة في تنشئتهما للطفل الذكر، فيسعى إلى استثمار القيم والحرية الاجتماعية الممنوحة لجنده دون السماح بنفس السلوكات والمعايير للمرأة. إضافة إلى ترسخ مفهوم الملكية وتشبيها المرأة في ذهن الرجل والتي تولدها التنشئة الاجتماعية من جهة والمرأة في حد ذاتها سواء في سلوكات اجتماعية أو ترسيخها في الخطاب اللغوي اليومي.

✓ الذكورة قيم تتحدد بالجنس والحاق الحاجة بالاعتراف من المجتمع أو الرجل ليست معيارا ثابتا، لذلك يعرض السارد نظرة أخرى توضح حاجة الرجل بدوره إلى الاعتراف الأنثوي بجماله وبوسامته وبجسده.

✓ امتاز الخطاب الروائي لدى بأسلوب أنثوي يفيض بمشاعر الألم والحزن والتعبير عن الذات، لكنّه من الناحية السردية قد عبر عن رغبة الراوي في اقصاء الشخصيات الانثوية عبر حرمانهن من الصوت السردية وتهميش أدوارها وسيطرة الصوت الذكوري عليهن.

✓

هوامش:

* يرجع تصنيفنا لهذه الرواية في خانة الرواية السيرداتية إلى تأكيد الروائي نفسه على أن أغلب هذه الوقائع حقيقية معاشة. في محاوره الكترونية شخصية معه عبر موقع التواصل الاجتماعي فايسبوك، يوم 22 مارس 2020 على الساعة 16:16 مساء.

¹ - ريكس نايت ومرجريت نايت، المدخل إلى علم النفس الحديث، تر: عبد علي الجسماني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، بيروت، 1993، ص351.

² - أسامة بن قرينة، رواية قلم مريض نفسي، دار يوتوبيا للنشر والتوزيع، ط1، تيارت، الجزائر، 2019، ص2.

³ - سليمة خليل، تيار الوعي والارهاصات الأولى للرواية العربية، مجلة المخبر، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ع7، 2011، ص180.

⁴ ينظر: روبرت همفري، تيار الوعي في الرواية الحديثة، تر: محمود الربيعي، دار غريب للنشر والطباعة، دط، والتوزيع، القاهرة، 2000، ص111.

⁵ - ميشال فوكو، حفرات المعرفة، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، لبنان، 1987، ص128.

⁶ - Barnaby J. W. Dixson, Masculinity and Femininity, T.K. Shackelford, V.A. Weekes-Shackelford (eds.), Encyclopedia of Evolutionary Psychological Science, January 2016. Translated text: «sex is biological and defines individuals based on their reproductive

anatomy into male and female, while gender refers to one's maleness (masculinity) and femaleness (femininity).» p01.

- 7- بام موريس، النسوية والأدب، تر: سهام عبد السلام، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، مصر 2002، ص37.
- 8- أسامة بن قرينة، قلم مريض نفسي، ص2.
- 9- المصدر نفسه، ص3.
- 10- المصدر السابق، ص3.
- 11- عصمت محمد حوصو، الجنادر الأبعاد الاجتماعية والثقافية، دار الشروق، ط1، عمان الأردن، 2009، ص62.
- 12- أسامة قرينة، قلم مريض نفسي، ص3.
- 13- المصدر نفسه، ص5.
- 14- إيميل سيوران، مثالب الولادة، تر: آدم فتحي، منشورات الجمل، ط1، بغداد، 2015، ص150-151.
- 15- أسامة بن قرينة، قلم مريض نفسي، ص4.
- 16- ك.غ. يونغ، جدلية الأنا واللاوعي، تر: نبيل محسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، سوريا، 1997، ص11.
- 17- أسامة قرينة، قلم مريض نفسي، ص9.
- 18- المصدر نفسه، ص13.
- 19- محمد محمد عويضة، علم النفس بين الشخصية والفكر، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1996، ص20.
- 20- ينظر: أسامة قرينة، قلم مريض نفسي، ص15.
- 21- ينظر: المصدر نفسه، ص17.
- 22- عادل سعيد آل عوض، إيقاظ الوعي ليس ما تراه بل ما تريد أن تراه، فهرسة مكتبة الملك، ط1، الرياض، 2001، ص17.
- 23- أسامة بن قرينة، قلم مريض نفسي، ص15.
- 24- المصدر نفسه، ص17.
- 25- ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، تر: جورج أبو صالح وآخرون، مركز الإنماء القومي، د.ط، بيروت، لبنان، 1990، ص304.
- 26- أسامة بن قرينة، قلم مريض نفسي، ص19.
- 27- المصدر نفسه، ص25.

- 28- المصدر السابق، ص32.
- 29- المصدر السابق، ص32.
- 30- المصدر السابق، ص64.
- 31- المصدر السابق، ص70.
- 32- المصدر السابق، ص76.
- 33- مسرد ومفاهيم ومصطلحات النوع الاجتماعي، منشورات المبادرة الفلسطينية لتعميق الحوار العالمي والديموقراطية "مفتاح"، رام الله، فلسطين، ط1، 2006، ص10.
- 34- المصدر السابق، ص33.
- 35- المصدر السابق، ص58.
- 36- المصدر السابق، ص.ن.
- 37- المصدر السابق، ص64.
- 38- المصدر السابق، ص63.
- 39- المصدر السابق، ص64.
- 40- المصدر السابق، ص79.
- 41- المصدر السابق، ص84.
- 42- أنظر: المصدر نفسه، ص58.
- * حسب ما صرح به الروائي نفسه في حوار أجريناه معه عبر موقع التواصل الاجتماعي فايسبوك، يوم المحاورة السابقة الذكر.
- 43- ينظر: أسامة قرينة، قلم مريض نفسي، ص94.
- 44- المصدر السابق، ص47.
- 45- كيت ميليت، نظرية السياسات الجنسية، كتاب النسوية والجنسانية، تر: هالة كمال وآية سامي، منشورات مؤسسة المرأة والذاكرة، سلسلة ترجمات نسوية، ع7، مصر، 2016، ص31.
- 46- المصدر السابق، ص.ن.
- 47- بام موريس، النسوية والأدب، ص73.